No 4A العدد4A
2026 آب Aug 2026
مجلة ساوة للدراسات الانسانية
Sawah Journal of Humanities
E-ISSN 3106 - 8324 P-ISSN 3106 - 8316
مجلة محكمة تصدر عن
جامعة ساوة الاهلية

الكشف عن الدور الحضاري والمعرفي للقرآن الكريم في تشكيل الوعي الاسلامي : دراسة وصفية مقارنة

م. م. سلوان مجيد رشيد محمود
جامعة سامراء
salwan.m.rasheed@uosamarra.edu.iq

الملخص
يتناول هذا البحث موضوع يسعى إلى الكشف عن الدور الحضاري والمعرفي الذي أدّاه القرآن الكريم في تشكيل الوعي الإسلامي عبر العصور ، وقد اعتمد ت المنهج الوصفي في تتبّع مظاهر الحفظ والتلقي والمؤسسات التعليمية، فضلًا عن المنهج المقارن في إبراز خصوصية التجربة القرآنية مقارنةً بطرائق انتقال النصوص في الحضارات الأخرى.
الكلمات المفتاحية :القرآن الكريم، الوعي الإسلامي، الذاكرة الحضارية، الحفظ القرآني، الهوية الإسلامية، الكتاتيب، الحضارة الإسلامية

Revealing the Civilizational and Cognitive Role of the Holy Quran in Shaping Islamic Awareness: A Comparative Descriptive Study

Assistant teacher. Salwan Majeed Rasheed mahmood

Abstract
This study examines the civilizational and intellectual impact of the Holy Qur’an in shaping Islamic consciousness across different historical periods. It adopts a descriptive methodology to analyze key dimensions such as memorization practices, channels of transmission, and the role of educational institutions. In addition, a comparative approach is employed to underscore the uniqueness of the Qur’anic model by contrasting it with other forms of textual transmission found in various
Keywords: The Holy Quran, Islamic Awareness, Civilizational Memory, Quranic Memorization, Islamic Identity, Kuttab / Quranic Schools, Islamic Civilization

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم هدايةً للبشرية، وجعله نورًا للقلوب والعقول، وحفظه بحفظه فقال سبحانه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر: ٩]، والصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ الذي بلّغ الرسالة وأدّى الأمانة، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فإن القرآن الكريم لم يكن في تاريخ الأمة الإسلامية مجرد كتابٍ للتلاوة والعبادة، بل كان الأساس الذي تشكّلت عليه هوية الأمة وذاكرتها الحضارية والفكرية والثقافية. فمنذ اللحظة الأولى لنزوله ارتبط بالإنسان المسلم حفظًا وتلقيًا وتدبرًا وعملًا، حتى تحوّل من نصٍّ محفوظ في صدور الأفراد إلى ذاكرة جماعية حيّة تحفظ وحدة الأمة عبر العصور. وقد أسهمت المساجد، والكتاتيب، وحلقات العلم، ومنظومة التواتر والمشافهة، في ترسيخ هذا الحضور القرآني داخل البناء الحضاري الإسلامي، بحيث أصبح القرآن عنصرًا فاعلًا في تشكيل الوعي الفردي والجمعي، وفي بناء القيم والأخلاق والنظم الاجتماعية والثقافية.

وتبرز أهمية هذا الموضوع في كونه يتناول القرآن من زاوية حضارية تتجاوز حدود الدراسة التقليدية للحفظ والتلاوة، ليكشف عن الدور العميق الذي أدّاه القرآن في صناعة الوعي الإسلامي واستمرار الهوية الحضارية للأمة. فالقرآن لم يُحفظ بوصفه نصًا دينيًا فقط، بل بوصفه مرجعيةً عليا ضمنت استمرارية الأمة الثقافية والفكرية رغم تعاقب الأزمنة واختلاف البيئات.

أسباب اختيار الموضوع

١. إبراز البعد الحضاري للقرآن الكريم ودوره في تشكيل الوعي الإسلامي.

٢.بيان أثر الحفظ والتواتر في حفظ الهوية الثقافية والفكرية للأمة.

أهداف البحث

١.توضيح مفهوم الذاكرة الحضارية وعلاقته بالقرآن الكريم.

٢.دراسة انتقال القرآن من الحفظ الفردي إلى الوعي الجماعي للأمة.

إشكالية البحث

تكمن إشكالية البحث في بيان الكيفية التي تحوّل بها القرآن الكريم من نصٍّ محفوظ في صدور الأفراد إلى ذاكرة حضارية شاملة أسهمت في بناء الوعي الإسلامي واستمرار الهوية الثقافية للأمة عبر العصور.

منهج البحث : اعتمد البحث على:

المنهج الوصفي: في عرض المؤسسات التعليمية والقرآنية.

الصعوبات التي واجهت البحث : تداخل البعد الديني بالحضاري والفكري في الموضوع.

غاية البحث

يسعى هذا البحث إلى بيان أن القرآن الكريم لم يكن مجرد نص محفوظ، بل كان القوة المركزية التي صنعت الوعي الإسلامي، وحفظت وحدة الأمة، وأسهمت في بناء حضارتها وقيمها وهويتها عبر التاريخ، مما يجعله عنصرًا حيًا متجددًا في تشكيل الإنسان والمجتمع إلى يومنا هذا

المبحث الأول: أثر حفظ القرآن في تشكيل الهوية الإيمانية والسلوكية

يُعدّ الحفظ القرآني من أبرز الوسائل التي أسهمت في تشكيل الوعي الفردي في الحضارة الإسلامية؛ إذ لم يكن حفظ القرآن مجرد استظهار للألفاظ، بل عملية تربوية تُسهم في بناء الشخصية الإيمانية والأخلاقية والعلمية للمسلم، لذلك ارتبط القرآن منذ نزوله بالتلقي والحفظ والعمل، قال تعالى: (بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ) [العنكبوت: ٤٩]. وقد أشار محمد عبد الله دراز إلى أن القرآن كوَّن في نفس المسلم رقابة داخلية دائمة جعلت الحفظ مدخلًا لبناء الوعي والسلوك **(محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م، ص١١٨).** كما بيّن يوسف القرضاوي أن العناية بحفظ القرآن أسهمت في صناعة الشخصية العلمية للأمة الإسلامية عبر الأجيال (يوسف القرضاوي، كيف نتعامل مع القرآن العظيم، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٥)

وإنَّ علاقة حفظ القرآن الكريم بتزكية النفس تُعدّ من أعمق العلاقات التربوية في البناء الإسلامي؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون نصًّا محفوظًا فحسب، وإنما ليكون مصدر هداية وتغيير وإصلاح للإنسان ظاهرًا وباطنًا، قال تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) [ص: ٢٩]. فالحفظ في التصور الإسلامي ليس عملية ذهنية مجردة، بل هو انتقال للقرآن من صفحات المصحف إلى أعماق النفس، حتى يصبح موجِّهًا للسلوك، ومؤثرًا في المشاعر، وحاكمًا على التصرفات.

وقد ارتبط مفهوم التزكية في القرآن بالتطهير والنماء معًا؛ أي تطهير النفس من الرذائل، وتنميتها بالفضائل، ولذلك كان حفظ القرآن من أعظم وسائل التزكية؛ لأن الحافظ يعيش مع كلام الله تكرارًا وتدبرًا واستحضارًا، فتتشكل نفسه تدريجيًا وفق القيم القرآنية. وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى أن كثرة تلاوة القرآن وتكراره تُحدث في القلب نورًا يردع النفس عن الشهوات ويقوّي سلطان المراقبة الداخلية **(أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢٨١).**

كما أن تكرار الحفظ يربط القلب باستمرار بالله تعالى، فالإنسان بطبيعته يتأثر بما يكثر ترديده واستحضاره، ولذلك فإن تكرار الآيات في الصلاة والمراجعة يجعل المعاني القرآنية حاضرة في الوجدان، فتخفّ حدة القسوة والغفلة، ويزداد الشعور بالسكينة والطمأنينة. وقد بيّن ابن القيم الجوزية أن القرآن يورث القلب حياة خاصة لا تتحقق بغيره، فقال إن القرآن "هو الشفاء التام من أدواء القلوب" **(ابن القيم، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م، ج٤، ص٢٨٧).**

ومن الجوانب المهمة أيضًا أن الحفظ يُهذّب اللسان والجوارح؛ لأن القرآن يربّي المسلم على الانضباط الأخلاقي، فالذي يحفظ آيات الصدق والعفة والصبر والرحمة يستحي أن يخالف ما يحمله في صدره،

وقد بيّن أبو حامد الغزالي أن القرآن يربّي القلب قبل الجوارح، وأن المقصود الأعظم من التلاوة هو تحريك القلب نحو الطاعة والخشية، فقال: "المقصود من القرآن فهم معانيه والعمل بما فيه، لا مجرد حركة اللسان" **(أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج١، ص٢٧٥).**

No 4A العدد4A
2026 آب Aug 2026
مجلة ساوة للدراسات الانسانية
Sawah Journal of Humanities
E-ISSN 3106 - 8324 P-ISSN 3106 - 8316
مجلة محكمة تصدر عن
جامعة ساوة الاهلية

فالغزالي يرى أن القرآن يصنع الضمير من خلال تحويل العلم إلى حالة شعورية داخلية تُوجِّه السلوك الإنساني.

ومن أعظم مظاهر بناء الضمير الديني في القرآن أنه يُنمّي الإحساس بالمسؤولية الفردية، فالإنسان في الرؤية القرآنية مسؤول عن عمله أمام الله، قال تعالى: (وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا) [مريم: ٩٥]. وهذه الآيات تُربي الإنسان على محاسبة نفسه، ولذلك كان السلف يتعاملون مع القرآن باعتباره مرآة أخلاقية يراجعون بها ذواتهم. وقد قال الحسن البصري: "إن المؤمن قوّام على نفسه يحاسب نفسه لله" (**ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م، ج٣، ص٢٣٣**).

كما أن القرآن يُكوِّن الضمير الأخلاقي من خلال أسلوب الترغيب والترهيب، فهو يفتح أمام الإنسان أبواب الرجاء برحمة الله وثواب الطائعين، وفي الوقت نفسه يزرع في نفسه الخوف من عاقبة الظلم والمعصية، وبذلك يتحقق التوازن النفسي والتربوي. وقد أوضح محمد عبد الله دراز أن الأخلاق القرآنية تمتاز بأنها تُنشئ "سلطانًا داخليًا" يجعل الإنسان يلتزم بالقيم ولو غاب القانون، لأن مصدر الالتزام هو الإيمان بالله لا مجرد الخوف من المجتمع (**محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٣م، ص٦٧**)

ومن الجوانب العظيمة التي تميّز بها القرآن الكريم أنه لم يجعل الأخلاق أمرًا ثانويًا أو مجرد نظام اجتماعي لتنظيم العلاقات بين الناس، بل جعلها جزءًا أصيلًا من حقيقة الإيمان والعبودية لله تعالى، فالقرآن الكريم حين يأمر بالصدق، أو الأمانة، أو العدل، أو الرحمة، لا يقدّمها بوصفها سلوكيات اجتماعية نافعة فقط، بل يربطها بالإيمان بالله واليوم الآخر والثواب والعقاب، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) [النحل: ٩٠]، وقال سبحانه: (وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا) [البقرة: ٨٣]، وقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) [البقرة: ١٩٥]. فالإنسان عندما يمارس هذه الأخلاق يشعر أنه يتعبد لله تعالى، لا أنه يؤدي واجبًا اجتماعيًا فقط، ومن هنا تميّز النظام الأخلاقي الإسلامي عن كثير من النظم البشرية التي تفصل الأخلاق عن الدين.

وقد أشار الراغب الأصفهاني إلى هذه الحقيقة عندما بيّن أن مقصود الشريعة هو تهذيب النفس وإيصالها إلى مكارم الأخلاق، فقال: "الغرض من الدين سياسة النفس وقيادتها إلى الفضائل" (**الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م، ص٤٢**). فالأخلاق عنده ليست مجرد سلوك خارجي، بل طريقٌ لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى.

ولهذا كان النبي ﷺ المثال العملي الأعلى للأخلاق القرآنية؛ لأنه جسّد القرآن في أفعاله وأقواله وسلوكه اليومي، حتى أصبح صورة حية للمنهج الإلهي. وعندما سُئلت عائشة بنت أبي بكر عن خُلُقه ﷺ قالت: "كان خُلُقه القرآن" (رواه مسلم). وهذه العبارة من أعظم العبارات التي وصفت شخصية النبي ﷺ؛ لأنها تعني أن القرآن لم يبقَ نصوصًا تُقرأ فقط، بل تحوّل في شخصه إلى واقع عملي متجسد. فالرحمة التي ذكرها القرآن ظهرت في رحمته ﷺ، والصبر تجلّى في صبره، والعدل في قضائه، والتواضع في معاملته للناس.

وقد شرح النووي هذا الحديث بقوله: "معناه العمل به، والوقوف عند حدوده، والتأدب بآدابه" (**النووي، شرح صحيح مسلم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٣٩٢هـ، ج٦، ص٨٩**). فالنووي يرى أن النبي ﷺ كان تطبيقًا عمليًا لكل ما جاء به القرآن من أوامر ونواهٍ وآداب.

كما أكّد ابن كثير هذا المعنى حين قال: "أي صار امتثال القرآن أمرًا ونهيًا سجيةً له وخُلُقًا" (**ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٩م، ج٨، ص٢٠٥**).

ومن هنا نفهم أن القرآن أراد صناعة "الإنسان الرقيب على نفسه"، لا الإنسان الذي يلتزم بالقانون خوفًا من العقوبة فقط. فالضمير الأخلاقي في الإسلام يقوم على الإحساس الدائم بأن الله مطلع على السرائر، قال تعالى: (مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [ق: ١٨]. ولذلك فإن المسلم قد يترك المعصية وهو قادر عليها، لا خوفًا من الناس، بل لأن القرآن ربّى داخله شعور المراقبة لله تعالى.

وقد بيّن محمد عبد الله دراز أن الأخلاق القرآنية تُنشئ في الإنسان "سلطة داخلية" أقوى من سلطة القانون، لأن مصدرها الإيمان بالله والشعور برقابته، فقال: "القانون يراقب الظاهر، أما القرآن فيخاطب

الضمير نفسه" **(محمد عبد الله دراز، دستور الأخلاق في القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٣م، ص٧١).**

ولذلك استطاع القرآن أن يصنع جيلًا فريدًا من الصحابة رضي الله عنهم؛ إذ تحوّلت القيم الأخلاقية عندهم إلى عبادة يومية يعيشونها في البيع والشراء، والحكم، والعلاقات الاجتماعية، والجهاد، والعلم، وسائر شؤون الحياة. فلم يكن الصدق عندهم خُلُقًا اجتماعيًا فقط، بل عبادة يُرجى بها رضوان الله، ولم تكن الرحمة مجرد عاطفة إنسانية، بل تنفيذًا لأمر الله واقتداءً برسوله ﷺ ، ومن هنا أصبح القرآن الكريم في الحضارة الإسلامية المصدر الأول لتشكيل الضمير الديني والأخلاقي، لأنه لم يكتفِ بوضع القواعد الأخلاقية، بل ربّى الإنسان على حبّها، والشعور بقيمتها، وربطها بالإيمان والآخرة، حتى أصبحت الأخلاق جزءًا من هوية المسلم ووعيه وسلوكه في السر والعلن ، وقد أشار أبو القاسم القشيري في تفسيره إلى أن القرآن يربّي الإنسان على "آداب العبودية" التي تنعكس على المجتمع كله، فليست العبادة عنده مجرد طقوس، بل أخلاق وسلوك ومعاملة، ولذلك قال عند تفسير قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ) [النحل: ٩٠]: "العدل إقامة الظاهر على قانون الشرع، والإحسان عمارة الباطن بالمراقبة والمحبة" **(القشيري، لطائف الإشارات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، ج٢، ص٣٥٦).**

ومن هنا كان الصوفية ينظرون إلى القرآن بوصفه مصدرًا لصناعة "الإنسان الكامل" الذي يحمل القيم الإلهية في تعامله مع الناس؛ فالرحمة والعدل والزهد والإيثار ليست صفات فردية معزولة، وإنما أساس لاستقرار المجتمع وتماسكه. وقد أكّد أبو حامد الغزالي أن أعظم وظيفة للقرآن هي إصلاح القلب؛ لأن القلب إذا صلح صلح به العالم، فقال: "صلاح الرعية بصلاح الملوك، وصلاح الملوك بصلاح العلماء، وصلاح العلماء بصلاح القلوب" **(الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٣، ص١٢).**

كما أن القرآن أسّس قيمة "الرحمة الحضارية"، وهي من أعظم القيم التي تكررت في الخطاب القرآني، حتى افتُتحت السور باسم الرحمن الرحيم. وقد فهم المتصوفة أن الرحمة ليست مجرد عاطفة، بل مبدأ حضاري يشمل علاقة الإنسان بربه وبالناس وبالكون كله. ولهذا قال محيي الدين ابن عربي: "العارف بالله أرحم الخلق بالخلق" **(ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص١١٤)** ، ومن القيم الحضارية التي رسّخها القرآن أيضًا قيمة "العلم"، فالقرآن أول ما نزل منه قوله تعالى: (اقْرَأْ) [العلق: ١]، ولذلك نشأت الحضارة الإسلامية حول المعرفة والقراءة والتعليم. وقد رأى المتصوفة أن العلم الحقيقي ليس مجرد معلومات، بل نور يهدي الإنسان إلى معرفة الله وإصلاح النفس. وقد قال سهل بن عبد الله التستري: "العلم كله دنيا إلا العمل به، والعمل كله هباء إلا الإخلاص فيه" **(السلمي، طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٧٨).**

كما ركّز المفسرون الصوفية على أن القرآن يبني "حضارة التوازن"، فلا يطغى الجانب المادي على الروحي، ولا الروحي على المادي، ولذلك رفضوا الانقطاع الكامل عن الدنيا إذا أدى إلى تعطيل عمارتها. وقد فسّر إسماعيل حقي البروسوي قوله تعالى: (وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) [القصص: ٧٧] بأن الآية "جمعت طريق الاعتدال بين عمارة الدنيا والتهيؤ للآخرة" (البروسوي، روح البيان، دار الفكر، بيروت، د.ت، ج٦، ص٢٤٥).

وقد أشار أبو حامد الغزالي إلى هذا المعنى بوضوح في كتابه إحياء علوم الدين عندما جعل "إصلاح القلب" أصل كل إصلاح، فقال: "القلب هو الأصل، والأعضاء تبع له، فإذا طاب القلب طابت الجوارح كلها" **(الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٣، ص٣)** ، ومن الأمثلة الواضحة في كتب الصوفية ما ذكره أبو القاسم القشيري في لطائف الإشارات عند تفسير قوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا) [الشمس: ٩]؛ إذ يقول: "زكّى نفسه بالمجاهدات، وطهّر قلبه عن الغفلات، حتى صار محلًا للمعرفة والأنوار" **(القشيري، لطائف الإشارات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، ج٣، ص٤١٢).**

فالقشيري يرى أن القرآن يدعو الإنسان إلى عملية بناء داخلية مستمرة، تجعل القلب مهيّأً لحمل القيم الإلهية في الواقع الاجتماعي.

ومن التطبيقات العملية لهذا المفهوم أن كثيرًا من المدارس الصوفية جعلت القرآن محور التربية الروحية والاجتماعية معًا. ففي الزوايا والمدارس الصوفية كان الطالب يبدأ بحفظ القرآن وتعلم آدابه قبل العلوم

الأخرى، لأنهم كانوا يرون أن العلم بلا تزكية قد يتحول إلى وسيلة للغرور أو طلب الدنيا. وقد نقل أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية عن بعض المشايخ قولهم: "من قرأ القرآن ولم يتأدب بأدبه، فقد استهزأ بنفسه" **(السلمي، طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م، ص٥٦)**. وهذا يدل على أن المقصود من القرآن عندهم ليس الحفظ المجرد، بل التحول الأخلاقي والروحي.

كما أن سهل بن عبد الله التستري كان يرى أن القرآن يربّي الإنسان على "المراقبة"، وهي شعور القلب الدائم بحضور الله تعالى. ففي تفسيره لقوله تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى) [العلق: ١٤] قال: "من علم أن الله يراه هانَت عليه شهوات الدنيا" **(التستري، تفسير التستري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ص٢١٠)** ، ومن أعمق الأمثلة كذلك ما ذكره محيي الدين ابن عربي في الفتوحات المكية حين تحدّث عن أثر القرآن في تحويل الإنسان من "عبد للشهوة" إلى "عبد لله"، فقال: "إذا تخلّق العبد بالقرآن صار رحمةً للعالم كما كان النبي ﷺ" **(ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص٨٨)**.

ولذلك فإن التصوف الإسلامي ـ في جذوره السنية الأولى ـ كان ينظر إلى القرآن باعتباره أساس النهضة الحضارية؛ لأن الحضارة عندهم لا تُقاس بكثرة المباني أو القوة السياسية وحدها، بل بمدى سموّ الإنسان أخلاقيًا وروحيًا. ولهذا قال ابن عطاء الله السكندري في الحكم العطائية: "الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها" **(ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٨)**. أي أن كل بناء حضاري يفقد روحه إذا خلا من الإخلاص والقيم القرآنية.

ومن هنا نفهم أن الصوفية عندما ركّزوا على بناء الإنسان لم يكونوا يدعون إلى الانعزال عن المجتمع، بل كانوا يرون أن إصلاح المجتمع يبدأ من إصلاح الإنسان نفسه، وأن القرآن هو الوسيلة الأعظم لإنتاج الإنسان الذي يحمل قيم الرحمة والعدل والإحسان، فيتحول بذلك إلى أساس لحضارة متوازنة تجمع بين عمارة الأرض وتزكية الروح

المبحث الثاني: انتقال القرآن من الذاكرة الفردية إلى الوعي الجمعي

يُعدُّ انتقال القرآن الكريم من الذاكرة الفردية إلى الوعي الجمعي للأمة من أعظم مظاهر الإعجاز الحضاري في الإسلام؛ إذ لم يبقَ القرآن نصًّا محفوظًا في صدور الأفراد فحسب، بل تحوّل إلى عنصرٍ مكوِّن لهوية الأمة وذاكرتها الثقافية والدينية عبر القرون. وتتجلّى خصوصية هذا الإعجاز في أن القرآن استطاع ـ مع امتداد الزمان وتباعد الأمصار واختلاف الألسنة ـ أن يحافظ على وحدته النصية والروحية بصورة لم تعرفها الكتب السابقة، فصار حاضرًا في التعليم والعبادة واللغة والثقافة والسلوك الاجتماعي.

وقد أشار محمد عبد الله دراز إلى أن من إعجاز القرآن "أن الأمة كلها أصبحت حاملة له، لا يختص بحفظه رجال الدين وحدهم" **(محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م، ص٩٨)**، كما يرى الباقلاني أن دوام حفظ القرآن وتناقله بالتواتر جيلاً بعد جيل يمثّل وجهًا من وجوه الإعجاز الدال على عناية الله بحفظ كتابه **(الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٤١)**

ولهذا كان النبي ﷺ يعتني عنايةً عظيمة بحفظ القرآن وضبطه، فكان إذا نزل عليه الوحي يبادر إلى ترديده خشية أن ينسى منه شيئًا، حتى طمأنه الله تعالى بقوله: (لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) [القيامة: ١٦-١٧]. وقد ذكر ابن كثير أن هذه الآية تدل على شدة حرص النبي ﷺ على ضبط ألفاظ القرآن وحفظها كما أُنزلت دون زيادة أو نقصان **(ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٩م، ج٨، ص٢٩١)**.

ومن أعظم القصص الدالة على ارتباط الحفظ بضبط النص القرآني ما وقع في "العرضة الأخيرة" في حياة النبي ﷺ؛ إذ كان جبريل يعارضه القرآن كل سنة مرة، وفي السنة التي تُوفي فيها عارضه به مرتين، كما روت فاطمة الزهراء (رواه البخاري). وقد عدّ العلماء هذه العرضة تثبيتًا نهائيًا للقرآن وضبطًا لترتيبه وألفاظه. وقد قال الزركشي: "وفي العرضة الأخيرة استقرّ القرآن على ما هو عليه الآن" **(الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م، ج١، ص٢٣٤)**.

ولمّا استُشهد عدد كبير من القرّاء في معركة اليمامة زمن أبو بكر الصديق خشي الصحابة ضياع شيء من القرآن بموت الحفاظ، فأشار عمر بن الخطاب بجمعه في مصحف واحد. وقد كانت هذه الحادثة من أعظم الشواهد على مكانة الحفظ في صيانة النص القرآني؛ لأن الدافع إلى الجمع كان الحفاظ أنفسهم. وقد

كُلِّف زيد بن ثابت بالمهمة، فكان لا يقبل الآية حتى يشهد عليها شاهدان من الحفظ والكتابة معًا، كما ذكر السيوطي في الإتقان في علوم القرآن **(السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ج١، ص٢٠٢)** ، وقد أشار الباقلاني إلى أن من وجوه إعجاز القرآن "استمرار حفظه على وجه التواتر دون اضطراب أو اختلاف مؤثر رغم كثرة حفاظه وانتشاره في الأمصار" **(الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٦)**.

كما أكّد محمد عبد الله دراز أن الحفظ الجماعي للقرآن يمثل ظاهرة حضارية فريدة؛ لأن الأمة كلها شاركت في صيانة النص، فقال: "لم يُحفظ كتاب في تاريخ البشرية حفظًا جماعيًا كالقرآن" **(محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م، ص١٠١)**.

ومن الناحية العلمية، مثّل الحفّاظ الطبقة الأولى في نقل العلوم الإسلامية؛ لأن العلوم الشرعية جميعها كانت متصلة بالقرآن تفسيرًا واستنباطًا واستدلالًا. ولهذا ارتبط مفهوم "الحفظ" في الحضارة الإسلامية بالضبط والإتقان، لا بالحفظ الآلي فقط. وقد أشار الخطيب البغدادي إلى أن الحفظ كان معيارًا أساسيًا في تفضيل العلماء، فقال: "كان السلف يكرهون أخذ العلم من الصحف دون الحفظ والإتقان" **(الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦م، ج٢، ص١٩٥)**.

كما أن الحفظ القرآني لعب دورًا محوريًا في بناء "الهيبة العلمية" داخل المجتمع الإسلامي. فقد ذكر ابن خلدون أن حفظ القرآن كان أصل التعليم في الحضارة الإسلامية، فقال: "اعلم أن تعليم الولدان القرآن شعار من شعائر الدين أخذ به أهل الملة" **(ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٥٣١)**. ومن الناحية الفكرية، أسهم الحفّاظ في حماية الأمة من التحريف والانقطاع المعرفي؛ لأن الحفظ الجماعي للقرآن خلق نوعًا من "الرقابة المعرفية الجماعية"، بحيث يستحيل عمليًا إدخال تغيير على النص القرآني دون أن يُكتشف. وقد عدّ الباقلاني هذه الظاهرة وجهًا من وجوه الإعجاز، لأن الأمة بأسرها شاركت في صيانة النص، فقال إن القرآن "نُقل نقلًا متواترًا يوجب العلم الضروري" **(الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٣٩)**.

فالقرآن عندما رسّخ قيمة "العدل" لم يجعلها مفهومًا نظريًا خاصًا بالقضاء والسياسة فقط، بل جعلها جزءًا من التعامل اليومي بين الناس؛ في البيع والشراء، والخصومات، والعلاقات الأسرية، وحتى في الكلام والمشاعر. قال تعالى: (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) [الأنعام: ١٥٢]. وقد أشار الطبري إلى أن الآية تشمل "العدل في الحكم والقول والشهادة على القريب والبعيد" **(الطبري، جامع البيان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م، ج١٢، ص٢٣٣)**.

ولهذا انعكست القيم القرآنية على الأسواق الإسلامية؛ فكان التاجر الصادق يُنظر إليه بوصفه صاحب منزلة دينية وأخلاقية، لا مجرد رجل اقتصاد. وقد قال النبي ﷺ: "التاجر الصدوق الأمين مع النبيين والصديقين والشهداء" (رواه الترمذي). فالأمانة التجارية هنا ليست قيمة اقتصادية مجردة، بل قيمة حضارية مرتبطة بالقرآن الذي نهى عن الغش والتطفيف، قال تعالى: (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ) [المطففين: ١]. ولذلك ذكر ابن خلدون أن ازدهار العمران مرتبط بالأخلاق، وأن الظلم والغش يؤذنان بفساد الحضارة **(ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٣٧١)**.

أما الصوفية فقد ركّزوا على البعد الروحي للقيم الحضارية، ورأوا أن القرآن يبني "حضارة القلب" قبل حضارة المدن. وقد قال أبو حامد الغزالي: "الناس إنما يفسد بعضهم بعضًا بطلب الدنيا، ولو عرفوا الله لاشتغلوا بإصلاح قلوبهم" **(الغزالي، إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت، د.ت، ج٣، ص٨٥)**.

و تطوّر الخط العربي أساسًا لخدمة القرآن الكريم؛ لأن المسلمين شعروا أن كلام الله يجب أن يُكتب بأجمل صورة ممكنة. ففي العصور الأولى كان الخط وسيلة عملية للكتابة، لكن مع انتشار المصاحف أصبح فنًا حضاريًا قائمًا بذاته. وقد ذكر ابن خلدون أن الخط العربي "من جملة الصنائع الحضارية" التي ازدهرت بازدهار القرآن والعلم (ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م، ص٥٤٨). ولهذا نشأت خطوط الكوفي والنسخ والثلث والديواني وغيرها لخدمة كتابة المصحف وتزيينه.

ومن الأمثلة الواضحة أن المصاحف الإسلامية لم تكن مجرد نصوص مكتوبة، بل أعمالًا فنية تعبّر عن قدسية القرآن؛ فالمذهبون والخطاطون كانوا يرون أن تجميل المصحف نوعٌ من التعظيم لشعائر الله. وقد

رُوي أن عبد الله بن عباس كان يقول: ‘‘إن من إجلال الله إعظامَ المصحف’’ **(السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م، ج٢، ص٤٨٩).**

أما الأدب الإسلامي فقد تأثر بالقرآن في لغته وصوره ومعانيه وأسلوبه. فالبلاغة القرآنية صنعت الذوق البياني للعرب والمسلمين، حتى إن كبار الأدباء كانوا يعدّون القرآن المصدر الأعلى للفصاحة. وقد قال الجاحظ: ‘‘القرآن هو الكتاب الذي أعجز العرب ببلاغته ونظمه’’ **(الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م، ج١، ص٨٨).**

ولهذا نجد أن الشعراء والكتّاب استلهموا من القرآن مفرداتهم وصورهم وأساليبهم، حتى صار حضوره ظاهرًا في الأدب العربي كله تقريبًا. كما أن القصص القرآني أثّر في الوعي الأخلاقي والاجتماعي للأمة، فقصص الأنبياء لم تكن للتسلية، بل لبناء القيم والصبر والإيمان. قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ) [يوسف: ١١١].

وفي الفكر الصوفي، كان القرآن مصدرًا لتشكيل ‘‘الذوق الروحي’’؛ إذ رأى الصوفية أن الجمال الحقيقي هو ما يقود إلى معرفة الله. وقد قال محيي الدين ابن عربي: ‘‘الجمال محبوب لذاته، والله جميل يحب الجمال، فكل جمال في الكون شاهد عليه’’ **(ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢، ص١١٤).**

أما مالك بن نبي فقد قدّم تفسيرًا حضاريًا عميقًا لهذه الظاهرة؛ إذ رأى أن الحضارة الإسلامية لم تنشأ من المادة وحدها، بل من ‘‘الفكرة الدينية’’ التي غيّرت الإنسان من الداخل، فقال: ‘‘الفكرة الدينية هي التي تبعث الحضارات’’ **(مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م، ص٦١)**. ويقصد بذلك أن القرآن صنع إنسانًا يمتلك رؤية أخلاقية وجمالية وروحية للحياة، ومن هذا الإنسان وُلدت الفنون والعلوم والعمارة والآداب الإسلامية.

ومن الأدلة التاريخية على ذلك أن ازدهار الحضارة الإسلامية كان مرتبطًا بازدهار الثقافة القرآنية؛ فحين انتشرت الكتاتيب وحلقات الحفظ والتفسير ازدهرت اللغة والعلوم والفنون، وحين ضعفت الصلة بالقرآن بدأ الضعف الحضاري يظهر تدريجيًا. ولهذا قال محمد إقبال: ‘‘إذا أردتَ أن ترى روح الأمة الإسلامية فانظر إلى صلتها بالقرآن’’ **(محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٨م، ص١١٧).**

ومن هنا يتضح أن القرآن الكريم لم يكن مجرد كتاب ديني يُتلى في العبادات، بل كان القوة المركزية التي شكّلت الذوق الحضاري للمسلمين، فانعكس أثره في الخط، والعمارة، والأدب، والأخلاق، والفنون، والعلاقات الاجتماعية، حتى أصبحت الحضارة الإسلامية في جوهرها تعبيرًا عمليًا عن الرؤية القرآنية للإنسان والحياة والجمال

الخاتمة

١- يُعدّ الحفظ القرآني من أبرز الوسائل التي أسهمت في تشكيل الوعي الفردي في الحضارة الإسلامية

٢- إنَّ علاقة حفظ القرآن الكريم بتزكية النفس تُعدّ من أعمق العلاقات التربوية في البناء الإسلامي؛ لأن القرآن لم ينزل ليكون نصًّا محفوظًا فحسب، وإنما ليكون مصدر هداية وتغيير وإصلاح للإنسان ظاهرًا وباطنًا

٣- كان النبي ﷺ المثال العملي الأعلى للأخلاق القرآنية؛ لأنه جسّد القرآن في أفعاله وأقواله وسلوكه اليومي، حتى أصبح صورة حية للمنهج الإلهي

٤- من أعظم القصص الدالة على ارتباط الحفظ بضبط النص القرآني ما وقع في ‘‘العرضة الأخيرة’’ في حياة النبي ﷺ؛ إذ كان جبريل يعارضه القرآن كل سنة مرة، وفي السنة التي تُوفي فيها عارضه به مرتين

٥- في الفكر الصوفي، كان القرآن مصدرًا لتشكيل ‘‘الذوق الروحي’’؛ إذ رأى الصوفية أن الجمال الحقيقي هو ما يقود إلى معرفة الله

٦- من الأدلة التاريخية على ذلك أن ازدهار الحضارة الإسلامية كان مرتبطًا بازدهار الثقافة القرآنية؛ فحين انتشرت الكتاتيب وحلقات الحفظ والتفسير ازدهرت اللغة والعلوم والفنون، وحين ضعفت الصلة بالقرآن بدأ الضعف الحضاري يظهر تدريجيًا

المصادر والمراجع

١- ابن الجوزي، صفة الصفوة، دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٠م
٢- ابن القيم، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٤م
٣- ابن خلدون، المقدمة، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٤م
٤- ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت،
٥- ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، د.ت
٦- ابن عربي، الفتوحات المكية، دار صادر، بيروت، د.ت، ج٢
٧- ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، دار السلام، القاهرة، ٢٠٠٧م
٨- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار طيبة، الرياض، ١٩٩٩م
٩- الباقلاني، إعجاز القرآن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٧م
١٠- التستري، تفسير التستري، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م
١١- الجاحظ، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٨م
١٢- الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٦
١٣- الرازي، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٩م
١٤- الراغب الأصفهاني، الذريعة إلى مكارم الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠م،
١٥- الزركشي، البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٨م
١٦- السلمي، طبقات الصوفية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م
١٧- السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٤م
١٨- الطبري، جامع البيان، مؤسسة الرسالة، بيروت، ٢٠٠٠م
١٩- القشيري، لطائف الإشارات، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م
٢٠- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٦م
٢١- محمد إقبال، تجديد التفكير الديني في الإسلام، دار المعرفة، بيروت، ١٩٦٨م
٢٢- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م
٢٣- محمد عبد الله دراز، النبأ العظيم، دار القلم، الكويت، ١٩٧٤م